

# كتاب سيبويه في المغرب والاندلس \*

الاستاذ: محمد حجي

تمهيد تاريخي :

يتصل كتاب سيبويه بالدراسات اللغوية والنحوية في المغرب والاندلس اتصالا وثيقا عبر العصور ، ويرجع احتكاك هذه البلاد باللغة العربية الى عهد الفاتحين المسلمين في القرن الهجري الاول . وكانت عجمة لسان سكان هذه المناطق مدعاة الى اقبالهم على تعلم لغة القرآن منذ ان اخذ الاسلام ينتشر بينهم ، والعرب يقيمون بين ظهرانيهم . وقد بدأ تعلم اللغة العربية في المغرب الاسلامي بطريق المحاكاة والتعجب الشفوي البسيط ، وحفظ آيات وسور من القرآن الكريم لاداء الشعائر الدينية ، قبل ان يميل الى استكناه أسرار اللغة والتعرف على قواعدها ، حينما رسخت قدم الاسلام في هذه البلاد ، واصبحت جزءا لا يتجزأ من الدولة الاسلامية الكبرى . لاسيما عندما اخذت تنتشر الحركة الفكرية ، الدينية واللغوية ، القائمة في المشرق آنذاك ، وتتردد اصداؤها في ارجاء المغرب والاندلس .

خلفاء دمشق او بغداد تصل الى المحيط الاطلنطي وجبال البرانس ، او عندما انفصلت المنطقة عن انظارهم بزعملة الامويين في الاندلس ، والادارسة في المغرب ، والاغالبية ثم الفاطميين بافريقيّة .

وابتداء من القرن الهجري الرابع ، دخل الغرب الاسلامي مرحلة النضج والتفتح الفكري ، حيث اخذت مساجد قرطبة بصفة خاصة ، تمنح باعلام العلماء ، ومكتباتها تزخر بمختلف المؤلفات اللغوية والنحوية والادبية ، ايام عبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم المستنصر . وتأكدت شخصية هذه المنطقة في القرون التالية مع المرابطين والموحدين الذين تمكنوا طوال قرنين ونيفا من اقامة امبراطورية انتظمت في سلكها اقطار شمال افريقيا والاندلس ، فكان العلماء ينتظون في ارجائها الفسيحة ، يملون ويؤلفون ، وينالون من ضروب الاكرام والتشجيع الوانا . وفي هذه الفترة بالذات نالت الدراسات اللغوية والنحوية والادبية اوفى نصيب ، وراج كتاب سيبويه اعظم رواج .

ثم كانت زوابع ومحن في الغرب الاسلامي خلال القرن الهجري السابع كادت تعصف بشتافته ، لولا جهود المرينيين الفخمة فيها بعد ، والمثبلة

كان من الطبيعي ان يحدث مثل هذا في الجناح المشرق من الامبراطورية الاسلامية ، غير ان قيام مدينتي البصرة والكوفة في العراق . واقبال علمائهما من عرب وفرس على جمع اللغة العربية وفلسفتها بتعميد القواعد واستنباط الاحكام والضوابط ، اسرع الخطى بتلك الاقطار في ميدان العلوم اللسانية ، وخولها نصب المسبق في هذا المضمار ، حتى اتجبت من الاعلام امثال الخليل بن احمد ، ويونس بن حبيب وسيبويه الذين اصبحوا ائمة العربية في كل زمان ومكان .

لقد دخل النحو الى المغرب والاندلس مع تلاميذ هؤلاء الائمة الذين هاجروا من المشرق فحطوا رحالهم بالقيروان وفاس وقرطبة ، واملوا على المتعلمين في هذه البلاد ما حوته صدورهم وقراطيسهم من علم غزير . ولئن عرفت الاوضاع السياسية بهذا الجناح الغربي من العالم الاسلامي تقلبات كثيرة خلال القرون الهجرية الاولى ، فان الحركة الثنانية ، ومن ضمنها العلوم اللسانية ، لم تنتن عن طريقها او تقف عند الحدود المصطنعة التي كانت تنصب حاجزا هنا وهناك ، تتقدم تارة وتراجع اخرى . فتابع العلماء نشاطهم الفكري في هذه البلاد ، سواء في المعهد الذي كانت فيه سلطة

\* من محاضرة التي بالمؤتمر العالمي الذي اقامته جامعة بهلوي بشيراز لتكريم امام اتحة سيبويه بمناسبة مرور ائس عشر قرنا على وفاته ، من 27 ابريل الى 2 ماي 1974

المدرسة الثانية ولو أنها اصطفت في البداية بصيغة عامية محضة ، فانها تحولت الى ما يشبه مسجد الضرار ، خاربة القوانين اعتيادا على سماعات شاذة أو منحولة ، وشعبت الى حد كبير سبل تحصيل النحو ، أو أمسته على حد تعبير السيوطي .

ثم تدارس علماء بغداد بعد ذلك آراء المدرستين المتنافستين ، فوازنوا واستظفروا ، وخطأوا ورجحوا . ونتج عن ذلك ظهور مدرسة بغدادية جديدة ، هي مزيج من مذهب البصريين والكوفيين .

وقد تلقى الغرب الاسلامي قواعد اللفظة العربية بذاهبها الشرقية الثلاثة ، عن طريق النخلة المهاجرين ، ومعظمهم جاؤا من بغداد ، فأخذوا من كتاب سيويوه أساسا للتعليم ، لأنهم بدورهم أخذوه عن شيوخ بصريين أو مشايخين لمذهبهم . ولانتشار المدرسة البصرية في المغرب والاندلس ، وسيادتها في المهود الاولى على سا عداها من المدارس النحوية أسباب يمكن اجمالها فيما يلي :

اولا - ان المذهب البصري أكثر أصالة ومنطقية ، وأقل تشعبا وتحلا .

ثانيا - وجود كتاب سيويوه بين أيدي الناس ، لا يزاحمه كتاب آخر للرؤاسي أو الكسائي أو غيرها من الكوفيين . والكل يعلم أن هؤلاء لم يؤلفوا ما يمكن أن يضاهى أو يقارب كتاب سيويوه وإنما هي رسائل وكراريس لا تذكر أمام الكتاب .

ثالثا - مناصرة العباسيين لعلماء الكوفة ، وإيثارهم اياهم بتعليم ولاية العهد وأبناء كبار رجال البلاط ، جعل الناس في الفسرب ينثرون من هذا المذهب بعد أن خاسموا خلافة بغداد وخلعوا طاعتها .

على أن ذلك لم يصرف علماء الفسرب والاندلس نهائيا عن النظر في مسائل الخلاف ، فتمعنوا عن آراء مختلف الفسرق ، ونظروا بخاصة في القضايا التي أخذت على البصريين فائتوا منها وأبطلوا ، وانتقدوا بدورهم بعض آراء البصريين ، ومسائل من كتاب سيويوه نفسه ، وخرجوا هم أيضا بمدرسة نحوية جديدة ، هي المدرسة المغربية الاندلسية التي تحدث عنها ابن خلدون في غير ما موضع من المقدمة .

في حشد المساجد والمدارس الفخمة وتشجيع المعلمين والمتعلمين في كل جهات المغرب ، وفي تقديم العمون المادى والمعنوى لمملكة قرناطة ، فكان لذلك الاثر المحود في احياء نماء العلم بالمدرستين ، وأعطى الدراسات اللسفية والنحوية فيهما ، وبخاصة كتاب سيويوه نفسا جديدا .

ولما حم القضاء ، وحلت النكبة الكبرى بالمسلمين في الاندلس في نهاية القرن التاسع أوت اندوة الجنوبية مختلف المقومات الحضارية مع آخر المهاجرين الاندلسيين ، وأصبحت مدينة فاس دار مقام لعدد عديد من الاسر النبيلة ، وفي مقدمتها أسرة أبى عبد الله النصرى آخر ملوك بني الاحمر ، وعمر اندلسيون آخرون مدن تطوان والرباط والقصبة ، واستوطن غيرهم حتى قمم الجبال وحدود الاودية ، وبلغوا بسائط سوس الاقصى .

وبذلك امتزجت الحضارة الاندلسية بالحضارة المغربية امتزاجا نهائيا ، ولم تنطفئ ذبالة تلك الشغافة الاصيلية ، ومعها الدراسات النحوية وكتاب سيويوه ، لم تنطفئ في المغرب الى أيام الناس هذه .

#### الدراسات النحوية في المدرستين :

بدأت الدراسات النحوية بالشرق ، كما هو معلوم ، في زمن مبكر أيام الخلفاء الراشدين ، وتوالى بعد ذلك الى أن ظهر في البصرة الخليل ابن أحمد الفراهيدى في منتصف القرن الهجرى الثانى ( موضع الاسس ونهج الطريق ) تاركا أمر تدوين القوانين النحوية الى تلميذه أبى عمرو بن عثمان سيويوه واضع « الكتاب » المشهور . وقد يكون هذا الكتاب من بين الاسباب التي أدت الى احتدام الخصام بين المدينتين المتنافستين : البصرة والكوفة ، ذلك الخصام الذى انجلى عن قيسام مدرستين نحويتين ، احدهما ، وهي مدرسة البصرة ، تسندها الاصالة والمنطق ، اذ وضعت قوانين عامة حسب مقاييس معتولة وأهملت الشواذ وما خالف الاستعمال المشهور عند جمهور العرب ، فحصرت بذلك اللغة العربية في قوالب محكمة وصيغ مضبوطة يسهل - نسبيا - ادراكها والاحاطة بها . والثانية ، وهي مدرسة الكوفة ، ساندتها البلاط العباسى وشده أزرها لاغراض لا علاقة لها بموضوع اللغة وقواعدها . هذه

الاندلسيين الذين شرحوا الكتاب وعلتوا عليه .  
 فهو قد ألف كتاب **تحصيل عين الذهب من معدن  
 جواهر الادب في علم مجازات العرب المطبوع مع  
 كتاب سيوييه في طبعة بولات شرح فيه شواهد  
 الكتاب الشعرية التي تنيف عن ألف بيت ونسبها  
 الى أصحابها .** وألف أيضا كتابا جمع فيه التكت في  
 كتاب سيوييه ، ورسالة مطولة في المسألة الزنبرية  
 الشسيرة ، أوردها المقرئ بتمامها في نفع الطبيب ،  
 الجزء الرابع من طبعة بيروت الاخيرة .

**اشهر الدارسين لكتاب سيوييه :**

تكاثر عدد الدارسين لكتاب سيوييه في المغرب  
 والاندلس عبر المصور تكاثرا يجعل من العبث  
 محاولة تعدادهم بل الاحاطة بهم ، ولو اتسع مجال  
 القول . غير انه لن يكون دون مائة في ختام هذا  
 العرض الموجز الاشارة الى بعض الاعلام البارزين  
 منهم تمثيلا لما سبق وتوثيقا .

نذكر في البداية ثلاثة من التحاة المشاركة  
 الذين دخلوا المغرب والاندلس في القرون  
 الاسلامية الاولى وكان لهم فضل السبق في نشر  
 النحو واللغة والادب وكتاب سيوييه في هذه الديار .  
 وهم :

أبو اليسر الشيباني ، ابراهيم بن أحمد  
 البغدادي ، تلميذ عالمي البصرة المبرد والجاحظ ،  
 وصاحب الشاعر في أبي تمام والبحتري . حمل  
 معه الى المغرب علما غزيرا ، وانصرف جمل  
 اهتمامه الى كتاب سيوييه ، حتى أنه كتب منه  
 نسخة في أخريات حياته بقلم واحد ما زال يبريه  
 حتى تصر فاندخله في قلم آخر وكتب به حتى نثره  
 بتمام الكتاب . وكاتت خاتمة مطاقت أبي اليسر  
 مدينة القيروان حيث توفي عام 298 .

وأبو علي القاسم ، اسماعيل بن القاسم  
 البغدادي ، صاحب **الخواص والامالي ، والمقصود  
 والممدود ، والبرج ،** وغيرها من كتب اللغة والنحو  
 والادب . وقد على عبد الرحمن الثامر الاموي عام  
 330 وعاش بقربطبة يدرس ، في جملة ما يدرس  
 ويلى « **كتاب سيوييه** » ، وكان قد أخذه في بغداد  
 عن ابن درستويه عبد الله بن جعفر الفارسي .  
 وعسرف القاسم بتدقيق النظر في الكتاب والانتصار  
 للبصريين الى أن توفي عام 356 .  
 ومساعد البغدادي ، أبو العلاء بن الحسين -

ونصيا يتعلق بالاتبال على دراسة اللغة العربية  
 وتواعدها في الغرب الاسلامي ، نلاحظ وجود نفس  
 الظاهرة الشرقية المتجلية في وغرة العناصر الاعجمية  
 الاصل من بين الدارسين . فكما كان سيوييه ودرستويه  
 الفارسيان مثلا من اعلام النحو العربي في الشرق ،  
 كان الجزولي وابن آجروم من برابرة السوس الاقصى  
 من أمة هذا الفن في الغرب . وظلت كتبهم جيما  
 تقرا وتشرح على تماقب الحقب والاجيال . غير ان  
 من المفارقات التي لا ينبغي اغفالها في هذا الباب ،  
 انه اذا كانت العناصر الغير العربية في الشرق ،  
 وبخاصة الفارسية قد أخذت تعود الى لغتها الاصلية  
 منذ زمن غير بعيد عن عصر سيوييه ، فان السوسيين  
 في المغرب ظلوا يتعلمون لغة القرآن ويعلمونها ويؤلفون  
 فيها مات الكتب الى اليوم . وقد نشر المرحوم المختار  
 السوسي منذ بضع سنوات تراجم علماء هذا الاتليم  
 المغربي وآثارهم الضخمة في اللغة العربية وغيرها ،  
 في كتابين هامين : **سوس العالمية ، والمصول ،** ويتبع  
 هذا الاخير في عشرين مجلدا .

**مركز كتاب سيوييه :**

لعل أصدق تعبير عن المكانة المكنية لكتاب سيوييه  
 في نفوس المغاربة والاندلسيين انه ظل معتدهم  
 الاساسي في الدراسات العليا لم يستبدلوه بغيره طوال  
 القرون . ولا يفهم من وجود كتب دراسية نحوية في  
 هذه المنطقة انها حلت محل الكتاب ، وانما هي مقدمة  
 وارجيز وضعت للمبتدئين والقامرين عن ادراك  
**الكتاب** وذلك كمقدمة الجزولي وابن آجروم ،  
 والقيسي ابن معطى وابن مالك وما اليها من شروح  
 وحواش . ومع ذلك بقي الكتاب مجال براعة  
 المرزيين من شيوخ النحوة وملتنقى  
 النجباء ( الشادين ) من الطلاب . هذا بالاضافة  
 الى ومرة عدد حفاظ الكتاب والمشتغلين  
 بالكتابة عليه شرحا وتعليقا واستدراكا . ومن  
 نماذج حفاظ الكتاب المغاربة ابرهنا المسكوري ،  
 موسى بن يعومين صاحب كرسى **كتاب سيوييه** في  
 القيروان . فقد نكروا في ترجمته أنه فتح بين يديه  
 يوما كتاب سيوييه بالقيروان في ثلاثة مواضع ، فقرأ  
 في كل موضع مقدار ثلاثة احواب مرضا عن ظهر  
 قلب . وكان ذلك بتدبير من خلفه الذين راموا  
 اعجازه على رؤوس الملا لما كان في طبعه من حدة  
 وفي لسانه من سلاطة . كما يعتبر الاعلام المشتهرى  
 يوسف بن سليمان الاشبيلي من أبرز نماذج

المغرب ، يدرس كتاب سيويوه في كل من فاس وسبتة  
وسلا ، مكونا حلقة أولى في سلسلة نحوية ستطول  
أجيالا عديدة . وكانت ولما بمدينة سلا عام 559 .

— ومحمد بن أحمد ابن طاهر الاتصاري  
الاشبيلي قرأ بالاندلس والمغرب ، واستوطن  
مدينة فاس قائما على تدريس كتاب سيويوه ، وله  
تعليق على الكتاب . وأقسم أن يقرئه في البصرة  
حيث وضعه سيويوه ، وبر ابن طاهر بقسمه فحج  
ودرس الكتاب بمصر والبصرة مدة ، ومرض في  
طريق رجوعه ، مات في بجاية بالمغرب الاوسط  
عام 580 .

ومن أبرز تلاميذ الإمامين الزقاق وابن  
طاهر :

أبو الحسن بن خروف ، علي بن محمد  
الحضرمي ، وهو أندلسي الاصل قرأ كتاب سيويوه  
بناس واشبيلية وبراكنس وغيرها ، ووضع عليه  
شرحا عجيبا سماه تنقيح الالباب في شرح غوامض  
الكتاب ، وله رسائل عديدة في مناظرة كبار نحاة  
مصره .

وعمر بن عبد الله السلمي الاغماني (أغيات.  
تربية من مدينة مراكنس ) لم يصرفه بمنصب القضاء  
الذي أسند اليه في تطسان وفاس واشبيلية عن  
تدريس كتاب سيويوه في هذه المدن كلها ، الى أن  
أركته الوماء نجاه باشبيلية وهو بها تلميذ  
عام 603 .

— وأبو القاسم بن اللجوم ، عبد الرحمن  
ابن عيسى الأزدي . وأسرته ابن اللجوم من أنبل  
أسر فاس ، تسلسل فيها العلم والجاه والثروة  
نحو عشرة قرون . وكانت لهم مكتبة من أعظم  
المكتبات الخاصة في المغرب الاسلامي . درس أبو  
القاسم على كبار نحاة مصره في المغرب والاندلس  
ونظر شيخه ابن طاهر في نحو الثلث من كتاب  
سيويوه . وأقرأ الكتاب مدة غير قصيرة في جامع  
القرويين الى أن تولى بفاس عام 604 .

— والإمام الشلوبين ، عمر بن محمد ، شيخ  
نحاة اشبيلية قبل أن ينتزعه المسيحيون من يد  
المسلمين . كان يدرس بها كتاب سيويوه ، وكتب  
تعليقا بها طارت شهرته شرقا وغربا .

ومن أبرز المتخرجين على يد الإمام  
الشلوبين :

دخل الاندلس أيام المنصور بن أبي عابد ، فاهتبل  
بمقدمه وأراد أن يعنى به على آثار أبي علي القالي  
للوافد من قبل علي بن أبي . لكن تلة خبرة صاعد  
بكتاب سيويوه عرضته الى السخرية والاهمال ،  
ولم يشفع له لدى الاتلسيين ما أملاه عليهم من  
كتاب التصوي . فقد ذكروا أن صاعدا دخل يوما  
على المنصور في مجلس ضم نحاة الاندلس وأدباءها  
فسأله عن أبي سعيد السيراني ، فزعم صاعدا  
أنه لقيه وقرأ عليه كتاب سيويوه ، فبادره العاصمي  
بسؤال عن مسألة من الكتاب فلم يحضره جوابها ،  
واعتذر بأن النحو ليس جيل بضاعته ، فكان ذلك  
بداية الشؤم الذي ظل يلاحق صاعدا في جهات  
الاندلس الى أن أجلاه عنها أيام الفتن الى جزيرة  
صقلية حيث مات مغربا حوالي عام 410 .

أما النحاة الاندلسيون والمغاربة الذين علقوا  
بكتاب سيويوه وبرعوا في تدريسه والتعليق عليه ،  
فبان في تلاميذهم ابنا العم الاشبيليان الزبيديان  
أبو محمد وأبو بكر .

قرأ أبو محمد عبد الله بن محمود الزبيدي  
النحو بسقط رأسه في الاندلس ودرس كتاب  
سيويوه ووضع عليه شرحا من أحسن ما شرح به  
الكتاب . ثم سافرت نفسه الى لقاء كبار النحاة  
بالمشرق ، فرحل الى بغداد ولازم أبا سعيد  
السيراني ثم أبا علي الفارسي . ولما انتقل هذا  
الاخير الى فارس سار معه أبو محمد الزبيدي  
اليها فدعاه الفرس أبا عبد الله الاندلسي .  
وتضايق أبو علي الفارسي من هذا اللاحق في  
الطلب والرغبة في الاستفادة ، فكان يقول للزبيدي  
عنى رؤوس الملا : ( أن والله على وجه الارض  
أنهى منك ) وأدركت الوفاة أبا محمد الزبيدي  
ببغداد عام 372 .

أما أبو بكر الزبيدي فلم يفادر بلاد الاندلس ،  
وظل يدرس كتاب سيويوه في اشبيلية الى أن دعاه  
الحكم المستنصر الى قرطبة ليؤدب فيها ولي مهده  
هشام ، وكانت له في جامعة الامويين مجالس  
نحوية عالية على غرار مجالس أبي علي القالي  
السابقة . وألف أبو بكر الزبيدي في جليسة ما ألف  
استدراكا على كتاب سيويوه ، ومات وهو تلميذ  
باشبيلية عام 379 .

ونجد في العدة الاخرى ، أبا محمد الزقاق ،  
قاسم بن محمد ابن الحاج ، شيخ النحاة في

أبو زيد المكودي ، عبد الرحمن بن صالح ،  
إمام النحاة في عصره ، ومؤلف الشرح الشهير  
على الفية ابن مالك . كان صاحب كرسي كتابة  
سيبويه في القرويين إلى أن تولى بفاس عام 807 .

وأبو عبد الله البعقلي ، محمد بن إبراهيم ،  
من قرية آيت الطالب في السوس الأقصى بجنوب  
المغرب ، كان يستظهر كتاب سيبويه ويديره لتجاء  
طلبة البادية عقودا عديدة من الستين . وكسنت  
وفاته عام 976 .

وأبو العباس الدلائي ، أحمد الحارثي بن  
محمد بن أبي بكر . تخصص من بين توبه العلماء في  
تدريس كتاب سيبويه بزوايتهم الدلائية في جبال  
الاطلس المتوسط بالمغرب ، إلى أن تولى عام  
1051 .

وأبو عبد الله الدرعي ، محمد بن ناصر ،  
عاش في قرية تامكروت بمحراء المغرب يدرس  
كتاب سيبويه ونسهل ابن مالك . إلى أن لقي ربه  
عام 1085 .

وبعد فإن كتاب سيبويه ظل محط عناية النحاة  
المغاربة والاندلسيين منذ حمله إليهم تلاميذ سيبويه  
فدرسوه وشرحوه واستذكروا عليه وانتقدوا بعض  
مسائله ، ودانعوا من ينتقسه بغير حق . ومازالت  
كلية اللغة العربية بمراكش التابعة لجامعة  
القرويين حتى اليوم تضع كتاب سيبويه في طليمة  
المواد التي يدرسها طلبة الدراسات العليا بها .

الرباط - محمد هجي

أبو محمد الأنصاري ، عبد الله بن علي . وانتقل  
بعد سقوط اشبيلية في يد النصارى إلى مدينة  
سبتة بالعدوة المغربية ، ناستوطنها ودرس بها  
كتاب سيبويه إلى أن تولى عام 647 .

عاصر أبا محمد الأنصاري في سبتة نحوي آخر  
شهير هو :

أبو الحسن الثمالي . علي بن محمد الغانمي ،  
كان الكتاب معتمده في مرحلتى التعلم والتعليم ،  
وتولى بعد الأنصاري بعامين .

ومن أبرز الشخصيات التحوية في القرنين  
الهجريين السابع والثامن :

الإمام الصفي ، محمد بن يحيى النعدي .  
أشهر المتخرجين على ابن خروف والتمم مقامه في  
تدريس كتاب سيبويه في القرويين بفاس ، تولى  
رحمه الله شهيدا في إحدى المارك ضد المسيحيين  
بجبل الفتح المعروف اليوم بجبل طارق عام 651 .

وأبو حيان الجياتي ، أمير المؤمنين في النحو .  
كان ملتزما إلا يتراء غير كتاب سيبويه ، أو تسهيل  
ابن مالك للذين لم يتأهلوا بعد لخوض غمار  
الكتاب . وكان أبو حيان سلفيا معجبا بأراء ابن  
تيمية ، فشد الرحلة إليه من الأندلس ، وأقام معه  
مدة في دمشق ، إلى أن خطأ ابن تيمية سيبويه وكتبه  
مكأن ذلك سبب اعراض أبي حيان عنه وذهابه  
مغاضبا إلى القاهرة . حيث أدركته الوفاة  
عام 745 .

ومن أشهر السيبويهيين المغاربة في القرون  
المتأخرة :